١ ـ أصحاب المعالي

(إن الله يحب معالي الأمور ، ويكره سفسافها)

« حديث شريف »

للأستاذ محمد محمود زيتون

لست أقصد بهذا العنوان نقداً لوزراء آل الحكم إليهم أو زال عنهم ، ولا أتحدث به عمن كانت لهم في الوزارة رياستان من سيف وقلم . ولا أريد أهل الموالي الذين كانوا يسكنون «العالية» في شمال المدينة المنورة ، وإنما أرمي إلى الطواف على كل ذي همة عالية في التراث الإنساني عند العرب وغير العرب ، في الماضي وغير الماضي ، من الشعراء والفلاسفة والعلماء والمتكلمين والمناطقة وأهل الفن ورجال الدين وأساطين الاختراع ، وجهابذة البيولوجيا والسيكولوجيا ، وأساتذة الأخلاق والاجتماع ، والساسة والقادة وأئمة الإصلاح ، ورعاة الأمم ، ممن ينضوون تحت لواء أصحاب المعالي الذين علوا في سلم المجد إلى درجات العلا

وفي الحق إنها لمخاطرة .. فما أوسع الآفاق ، وما أرحب الجوانب ، وما أصعب التجميع بين الأشتات ، والتوفيق بين المنظوم والمنثور ، والتأليف بين أعالي الجبال ومعالي الأمور

وسنرى أن العرب — جاهليين وإسلاميين — كانوا حقا أصحاب المعالي في كل جانب من جوانب الحياة الكريمة ، فقد امتلأت دواوين شعرهم ، وسجلات نثرهم بكل مشتقات المعالي قولا وعملا

هذا أقل ما يمكن للشعوب والحكومات العربية عمله للعزوف عن هذه السلبية الضارة التي انتهجوها إزاء عدوان الهند في كشمير ، ولإيفاء بعض ما عليهم من دين لباكستان التي كان حماسها ودفاعها عن قضايا العروبة بجميعها في هيئة الأمم وخارج هيئة الأمم على أخلص ما يكون الحماس وأبلغ ما يكون الدفاع

نيويورك

« عين »

حتى ليبدو للباحث المنصف أنهم أكثر أصحاب الحضارات إنتاجا في هذا الباب بحيث لم تكن تخلو خطرات شاعرهم ونائرهم من الجبال العالية ، حقيقة ومجازاً ، بيانا وبديعا ، صراحة وكناية

لهذا انفردت اللغة العربية بوفرة المشتقات من هذه المادة . قالوا في الفعل : علا يعلو ويعلى ، وتعالى يتعالى ، وتعلى يتعلى ، واعتلى يعتلي ، واستعلى يستعلي ، واعلولى يعلولي ، وأعلى يعلي ، وعلى يعلي ، وعالى يعالي ، واعل وتعال وعالى[1] . وفي الاسم والصفة قالوا : العلو والتعالي والاعتلاء والعلاء والاستعلاء والعلي والعلى والعلي ، والعلوي والأعلى والعالي والمتعالي والمعتلي والعلي . والعلوان والعالية والعلياء والمعلاة والعليا والعليات والعلية[2] والعلاوة . والأعالي والمعالي والموالي والعلالي والعلاوي والعليون . وفي الحرف والظرف قالوا : على وأعلى وعلوا وعاليا وعلاء وعالية ومن عل ومن عال ومعال ومن علا وعلو .

وإلى جانب هذا اشتقت الأعلام فقيل : علي ويعلى وعلاء والعلاء ، والعلا والأعلى ، وابن العلاء وأبو المعالي وأبو العالية وأبو العلاء وعبد الأعلى ، وعلية ، وأم العلاء ، ومن أسماء الأماكن المعروفة بالحجاز : العالية والعلياء والموالي والمعلى والعلاية وعلو المدينة

وقالوا : سدرة المنتهى ، والفردوس الأعلى ، والجنة العالية ، وأعلى عليين . واشتقوا من هذه المادة بعض الاصطلاحات الفنية فمنها :

استعلاء الحروف وهو أن تتصعد هذه الحروف في الحنك الأعلى ، والمستعلي من الحروف سبعة وهي الخاء والغين والقاف والضاد والصاد والطاء والظاء — ورجل علو للرجال (على وزن عدو) قاهرهم . والمرأة عالية الدم أي يعلو دمها الماء ، وهي تتعلى من نفاسها أي تطهر منه ، والعالية في القناة أعلاها ، وعوالي الرماح

(١) عال (بكسر اللام) . دعى ، وعال علي . ارتفع عني ودعني .

(٢) العلية (بكسر العين وضمها وتشديد اللام والياء) : الغرفة وجمعها العلالي

(٣) العلاوة : (بكسر العين) وهي ما يعلق على البعير بعد حمله ، (وبضم العين) هي نتيش الفقاة وهي أيضا أعلى الرأس والعنق . وجمعها علاوى (بفتح العين واللام والواو)

كناية عن الشباب والوجاهة ، قالت الخنساء وقد خطبها دريد : «أترونني تاركة بني عمي كأنهم عوالي الرماح ومرتفة شيخ بني جشم» وعالية الوادي حيث ينحدر الماء منه ، ويقال : استعلى الفرس على الغاية إذا بلغ الغاية عن الرهان ويقال : لاتعل الريح على الصيد فيراح ويحك ويفتر ، ويقال : كن في علاوة الريح وسفالتها ، والمعلى (بفتح اللام) هو الفدح السابع في الميسر ، وهو أفضلها لأن له غنم سبعة أنصباء إن فاز ، وعليه غرم سبعة أنصباء إن خسر ، وللناقة حالبان : البائن والمعلى أو المستعلى . قال الكميت :

بيشر مستعليا بائن من الحالبين بأن لافرارا

وعليون : ديوان الملائكة الحفظة يرفع إليه أعمال الصالحين من العباد ، وهذه كلمة تستعمل لساني أي تجري عليه . وذهب الرجل علاء وعلوا إذا ارتفع ، وتعلت المرأة أو تعالت أي ارتفعت وتشوفت لخطابها ، وتعلى الرجل من علته إذا برأ ، ويقال في الدعاء لكثير المال : اعل به أي ابق بعده . والمعتلي المقصر ، قال طفيل الغنوي :

ونحن منعنا يوم حرس نساءكم فسداة دعانا عامر غير معتلي

فالمعتلي فرس عقبة بن مدلج ، والعلاة فرس عمرو بن جبلة ، والمعلى فرس الأشعر الشاعر ، وعلوى فرس سليك . وعلوى فرس خفاف بن ندبة الذي قال فيها :

وقفت له علوى وقد خام صحبتي لأبني مجداً أو لأثأر هالكا

وعلوى أيضا اسم فرس كانت من سوابق خيل العرب . وكذلك الناقة ناقة عليان طويلة جسيمة ، وناقة علاة وعلية وعليان . وعالية القوم وعلياهم أي أعلاهم ، وعلية القوم وعليهم : أشرافهم .

وتولدت الألفاظ المرادفة للعالي فاشتق منها . رافع وصاعد وطالع وطلاع وظلمة ، وعزيز ومعتز ومعز ، وقد يضاف إليها ابن أو أب أو أم . وأنف الناقة وسنام الأمر . والسمو والرفعة والعزة والقمة والذروة والخفة والهمة والصعدة والرقية والطلعة والتوقل والشرف والشرفة ، والغارب والمجد والمحتد والأصل ، وأبو الدجم وعبد شمس وعبد الأعلى .

واقتضى ذلك معرفة بأحوال الجبال والتلال ، والنجوم والأفلاك ، والرياح والمشارق والمغارب ، والترحال والتسيار ، والمياه جاريها وراكدها ، ومواطن النهوض والنكوص ، وعوامل العزة والذلة ، وعلامات الرفع والخفض ، والأصول والمحامد ، والمبادئ الباقية والهادمة ، والنفوس المتقدمة والمتخلفة ، والمناصب العالية ، والأوضاع المملوكة ، واتجاه المرء من العالي إلى السافل وبالعكس

احتفلت كنوز العربية بهذه الذخائر ، واستطاعت أن تعطي للحضارة عناصر القوة في انتقال تراثها من المادية إلى المعنوية ، شأنها في ذلك شأن الإنسانية في إطارها الواسع حين تدرجت — في النظر والتأمل — من الأشياء المحيطة إلى النفوس المدركة ذاتها .

وليس من الطبيعي أن يتأمل الطفل نفسه أول مايتأمل ، بل هو يظل طويلا يتفحص الموجودات المحسوسة ثم يدقق — من بعد — في البحث وراء النفس وخصائصها .

فالجبال العالية ، والسموات العلا ، والآفاق الممتدة ، والأفلاك السارقة والغاربة ، الطالعة والآفلة ، والأطيار الغادية والرائحة ، والسهام والرماح في مروقها وهبوطها ، والجمل البازل والطامح ، والكثبان حين تعلو وتسفل مع الرياح الهوافي ، والصواعق حين تنقض ، والأمطار حين تنزل ، والقوى حين يتغلب على الضعيف ، وحالب الناقة حين يعلو ويسفل ، والمرء حين يرتفع ويتضع بنسبه وحسبه وقوله وعمله ، والعيون في مطالعة المشاهد في وضح النهار ، والأشباح في غبش الظلام ؛ والآذان في تتبع الأصوات من مصادرها ، وأصدائها البعيدة المديدة ، والحيوان والإنسان في الطلوع والنزول .. ومقارنة هذا كله بعضه ببعض من حركة بين السماء والأرض ؛ والعالي والسافل ، من فوق إلى تحت .. هذه المدركات لابد أن ينتقل بها النطق الإنساني من المحسوس إلى المعقول ، أي من المادة إلى المعنى ، ومن المدرك إلى المجرد ، ومن الأشباح إلى الأرواح ، فكان الإنسان — تبعاً لذلك — همزة الوصل بينهما . ومصداق ذلك العلياء رأس الجبل وهي أيضا ما علا من الشيء ، وهي اسم من أسماء السماء

والمفهوم أن الفكر الإنساني قد تراوح على مر العصور بين الأرض والسماء ، وبين الثرى والثريا ، والسماك والسمك ، وتنقل

بين مطالب المادة والروح . وهنا نعرض نماذج موجزة لهذه النقل

قالوا . فلان خطير النفس ، بعيد مرتقى الهمة ، وإنه ليسمو إلى معالى الأمور ، ويصبو إلى شريف المطالب ، وتنزع همته إلى سنى المراتب . وإنه لطلاع ثنايا (وهى الطرق فى الجبال) ويؤم معالى الأمور ، ويجرى فى فلاء(٤) المجد ، ويتسور شرفات العز ، وفلان بنى له مجداً مؤثلا (راسخا) وتفرع (صعد) ذروة المعالى ، ووثب إلى قمة الشرف ، وعلى العكس من ذلك قالوا . فلان قاعد الهمة ، عاجز الرأى ، متخاذل العزم ، لا تسمو همته إلى منقبة ، ولا يدفعه طبعه إلى مكرمة ، وهو قد استوطن مهاد الخمول ، وأخلد إلى الصغار واستنام إلى الضعة ، ورضى من دهره بالدون ، وقعد عما تسمو إليه النفوس العزيزة ، وترق إليه الهمم الشريفة

وفى العزة يقولون . عزيز الجانب ، منيع الحوزة ؛ حصين الناحية ، وفلان أقام تحت ظلال العز ، وباهم عزا لا يقرع الدهر مرونه ولا ينصم عروته ولا ينقض مرته ، ولا يزال كعبه عاليا وهو أعلى عينا .

وفى الذلة يقولون . كليل الظفر ، مهيض الجناح ، ضعيف المنة (القوة) ، مخضود الشوكة ، مالت دعائم عزه ، وتهاوت كواكب سعده ، وتقوض سرادق مجده :

وفى النباهة يقولون : ذهب سمه فى الناس ، وتجاوبت بصدى ذكره المحافل ، ورن صيته فى الأقطار ، وهو أشهر من القمر ، وأشهر من نار على علم (جبل) ، وعلى الضد من ذلك : هو خامل الذكر ، ضئيل الحسب مغمور النسب ، وهو نكرة من النكرات وغفل من الأغفال ، وهو تعلو عنه العين أن تنبو عنه

ومن باب الإيماء إلى المعالى اختيار عناوين الكتب ، فللحلبى « النفحة العلوية » وللذهبى « العلو للعلى الغفار »

وإذا قال العرب : يفتله فى الذروة والغارب فذلك كناية عن أن يستميله

وهذا ابن خفاجة الأندلسى يمنح الحياة للجبل العالى ، ويضفى عليه صفات الرعونة والطموح ، والحركة الذاتية ، إذ يقول :

وأرعن طماح الذؤابة باذخ بطاول أعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة ويزحم ليلا شهبه بالمناكب

وهذه صورة جلمود صخر حطه السيل من عل تنعكس على حس امرئ القيس ، ولا تفوت خياله وهو يرى جواده يجرى فى قوة واندفاع فيقول :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

ويقول زهير :

تبصر خليلى هل ترى من ظعائن تحملن بالعلياء من فوق جرثم

ويتجلى طموح الذهن ، وتطاول الخيال فى هذا الصراع النفسانى بين الواقع والمثال ، حين يقول الشاعر الجاهلى القديم ، وهو يتحدث عن فرسه السريع :

ولو طار ذو حافر قبلها لطارت ولكنه لم يطر

الكلام صلة

أحمد محمود زيتونه

(٤) الفلاء بالكسر جمع فلوة وهى مقدار رمية السهم .

تاريخ الأدب العربى

الأستاذ أحمد حسن الزيات بك

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر ، بأسلوب قوى ، واستيعاب موجز ، وتحليل مفصل ، واختيار موفق ، ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى

طبع إحدى عشر مرة فى ٥٢٥ صفحة

وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد